رد على تعقيب

الجبر والاختيار

للأديب السيد محمد العزاوى

طالعت فى البريد الأدبى لعدد الرسالة — ٣٢٢ — ما تفضل به علىّ الأديب الفاضل داود حمدان من ملاحظات قيمة على مقالى الأول فى الجبرية والاختيار ؛ وعنت لى ملاحظات على رده سيتسع صدره لها دون شك ، والله المستعان

أما اعتراضه على أن المسلمين لم يقل منهم أحد بأن « الإنسان وأفعاله من خلق الله فلا يكون ثمة حساب أو عقاب » فواضح أن أحداً لم يقل بذلك . وما هو بخاف ، ولكنى أردت أن أذكر حدى القضية الذهنيين ، بغض النظر عن أن الكلاميين تكلموا فى الطرف الثانى أو لم يتكلموا . وهذا أسلوب واضح : أن يذكر الكاتب حدى القضية على السواء فى ذلك المعقول وغير المعقول الممكن والمستحيل ، ما تكلم فيه وما لم يتكلم فيه . ولعله فهم أنى أريد أن المتكلمين قد تكلموا فى هذا الوجه ما داموا قد تكلموا فى الوجه الآخر ، ويبدو أن هذا ما بنى اعتراضه عليه

أما ذهابه إلى أن المسلمين قد أجمعوا على أن الله تعالى عالم بكل ما يحدث قبل حدوثه ففيه نظر ؛ إذ قد اختلفت وجهات النظر بين الفرق اختلافاً لم يجعل وجهاً لادعائه بأن فرقة واحدة من القدرية هى التى قالت : « إن الله لا يقدر الأمور أزلاً ، ولم يتقدم علمه بها ، وإنما يأتنفها علماً حال وقوعها » . فقد ذهب إلى ذلك مفكرون عدة سأذكر بعضاً منهم على سبيل المثال . فالجهم بن سنوان رأس الجهمية قال : « لا يجوز أن (الله) يعلم الشيء قبل خلقه لأنه لو علم ثم خلق أفيسق علمه على ما كان أو لم يبق ؟ فإن بقى فهو جهل : فإن العلم بأن سيوجد غير العلم بأن قد وجد ؛ وإن لم يبق فقد تغير ، والمتغير مخلوق ليس بقديم .. وإذا ثبت حدوث العلم فليس يخلو إما أن يحدث فى ذاته تعالى ، وذلك يؤدى إلى التغير فى ذاته ، وأن يكون محلاً للحوادث ، وإما أن يحدث فى محل فيكون المحل موصوفاً به لا البارى تعالى فتعين أنه لا محل له . فأثبت علوماً حادثة بعدد المعلومات الموجودة[1] »

وهشام بن الحكم قال بأن (الله سبحانه) لم يزل عالماً بنفسه ، ويعلم الأشياء بعد كونها بعلم لا يقال فيه محدث أو قديم لأنه صفة والصفة لا توصف[1]

وهشام بن عمرو الفوطى كان يقول بأن الأشياء قبل كونها معدومة ليست أشياء ، وهى بعد أن تعدم عن وجود تسمى أشياء . ولهذا المعنى كان يمنع القول بأن الله تعالى قد كان لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها فإنها لا تسمى أشياء[2]

فأى هذه الفرق — على قلة ما اخترت منها — يريد أن تكون الفرقة من القدرية ؟ الجهمية أو الهشامية أو الفوطية ، وغيرها كثير ؟ ثم ألا يكفى كل هذا لأن أجعل هذا القول مقابلاً لقول سائر المسلمين ، أو على الأقل لأن أدعى أن هذا كان تفكيراً لرجال الدين والمتكلمين ؟ أم أن تكفير الإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد وغيرهم من الأئمة لهذه الفرق يخرج بهذا التفكير عن أن يكون « إسلامياً » : إن لم يكن بالمفكرين فيه فلا أقل من أن يكون بالموضوع الذى دار حوله هذا التفكير ؟ صحيح أن النزاع فى مسألة سبق علم الله بما يحدث أو ائتنافه له علماً حال وقوعه قد اندمج فى « النزاع فى أنه كما أن للعالم منا علماً هو عرض قائم به زائد عليه حادث ، فهل لصانع العالم علم هو صفة أزلية قائمة به زائدة عليه ، وكذا جميع الصفات[3] » وتشعب القول بين الفرق فى الأمر ، وأصبح سبق علم الله أو ائتنافه حدا من حدود هذه القضية . واختلف القول فيه إلى ما قد فرغت من إيراد بعضه ، واتضح منه أن المسلمين لم تجتمع كلمتهم على ما أورد الأديب الفاضل . ولنفرض جدلاً بأن طائفة واحدة من القدرية قالت بأن الله لم يتقدم علمه بالأشياء ، أليس من العدل أن أذكر ذلك حتى أبين أقصى مدى بلغته الفكرة ، وأوسع عرض حازته هذه الدعوى ؟

أما اعتراضه على اشتراك الجهمية والمعتزلة فى نفس الصفات عن الله ففيه نظر كذلك ؛ فقد طلب الأديب الفاضل أن أفصل قول المعتزلة حتى لا أوهم إنكارهم الصفات إنكاراً غير حميد ، ولم يكن المقام مستلزماً أن أفصل قول المعتزلة أو غيرهم فإنى كنت أود أن أبين اشتراكهم والجهمية فى اختصار أتحرز به من تهويش ذهن القارئ حتى أستطيع بعد ذلك أن أطلعه على رأى أبى العلاء على أن الجهمية وافقت المعتزلة فى نفس الصفات الأزلية . فنفى جهم أن يكون لله صفات غير ذاته[4] وزاد عليهم (على المعتزلة)

(١) الشهرستانى ج ١ على حاشية الملل والنحل لابن حزم ص ١٠٩

(١) الشهرستانى ج ٢ على حاشية الملل والنحل لابن حزم ص ٢٢
(٢) الشهرستانى ج ١ ص ٩١ (٣) العقائد النسفية وحواشيها ص ٤٥ (٤) فجر الاسلام ص ٣٤٣

بأشياء منها قوله لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى تشبيهاً . فنفى كونه حياً عالماً ، وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً ...[1]

فنفى الجهمية للصفات ناشىء من أن التشبيه بالمخلوق مستحيل على الله فوجب أن يؤول ما يرد فى القرآن بهذا المعنى ، ويؤخذ على غير ظاهره . فالحياة والعلم الإلهيين — فى رأى الجهمية — ليسا حياة وعلماً كحياتنا وعلمنا، تحرزاً منهم من التشبيه، فليس نفيه — والحال هذه — « يعطل الأسماء والصفات تعطيلاً يستلزم نفى الذات المقدسة .

ونفى المعتزلة للصفات ناشىء من أنهم لو أثبتوا الصفات ، فإما أنها صفات قديمة قائمة به زائدة عليه فيلزم تكثر فى الذات ، وتعدد فى القدماء والواجبات ، ومن المستحيل تعدد الذوات القديمة . وإما أنها صفات محدثة فهى عرض لذات قديمة والعرض قابل للتغير والزوال ، ومحال على الله التغير . فالمتغير مخلوق ليس بقديم . وإن كانت صفات قديمة أزلية ، فإما أن تكون خارجة عن الذات فتعدد القدماء « وأنكره الفلاسفة والمعتزلة وزعموا أن صفاته عين ذاته بمعنى أن ذاته تسمى باعتبار التعلق بالمعلومات عالماً ، والمقدورات قادراً[2] ولصعوبة هذا المقام ذهبت المعتزلة ، والفلاسفة إلى نفى الصفات ، والكرامية إلى نفى قدمها ، والأشاعرة إلى نفى غيريتها وعينيتها[3] »

فالفرقتان كما ترى من المعطلة ، قد اتفقتا فى النتيجة ، وإن اختلفتا فى الأسباب . وقد كانت مشاركتهما فى هذا الأصل داعياً إلى تلقيب المعتزلة بالجهمية « لا لأنهم وافقوا الجهمية فى القدر ... ولكن لأن المعتزلة وافقوا الجهمية فى نفس الصفات عن الله ، ... ، ... ، وقد ألف البخارى والإمام أحمد كتابين فى الرد على الجهمية وعنيا بهما المعتزلة[4] »

فهل رأيت إلى هذا التشارك الذى حلل أن تدعى المعتزلة بالجهمية ؟ ذلك معناه أن الجهمية إن كانت من هذه « الطوائف الملحدة » فأنت مضطر إلى أن تعترف بأن المعتزلة من هذه الطوائف الملحدة كذلك . وهذا ما لا يسلم به الأديب الفاضل ، وما لم يقل به أحد

هذا ما أحببت أن أوجه هم الأديب الفاضل إليه ، وأرجو أن يتقبله بقبول حسن . على أنى قبل كل شىء وبعد كل شىء أشكر له صنيعه هذا شكراً جزيلاً .

السيد محمد الغزاوى

(١) الشهرستانى ج ١ ص ١٠٩ (٢) العقائد النسفية وحواشيها ص ٤٥
(٣) العقائد (شرح الخيالى على السمد) ص ٤٩ (٤) الفجر ص ٣٤٣

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٥٠٢ — ولكن لا نستطيع أن نتكلم

فى (العقد) : قال رجل لهشام بن الحكم : أنت تزعم أن الله فى فضله وكرمه وعدله كلفنا ما لا نطيقه ، ثم يعذبنا عليه .

قال هشام : قد (والله) فعل ولكن لا نستطيع أن نتكلم[1]

٥٠٣ — ميمونة الزنجية تطيب بذلك

فى (الموشح) : قالت امرأة[2] لكثير عزة : أأنت كثير عزة ؟ قال : نعم . قالت : تبا لك ! أتعرف بامرأة[3] ؟ ! قال : وما يضيرنى من ذاك ؟ فوالله لقد رفع الله بها ذكرى ، ونشر فيها شعرى ، وأغزر بحرى . قالت : أفلست القائل :

فما روضةٌ بالحزن طيبةُ الثرى
يمج الندى جثجاثُها وعرارُها[4]
بأطيب من أردان عزة موهناً
وقد أوقدت بالمندل الرطب نارُها[5]

قال : نعم ، قالت : فض الله فاك ! تالله ما رأيت شاعراً قط أقل عقلاً ولا أضعف وصفاً منك . أرأيت لو أن ميمونة الزنجية[6] بخرت بمندل رطب ، أما كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال سيدك :

(١) فى (أمالى المرتضى) : قال الجاحظ : قلت لأبى يعقوب الخريمى الشاعر : من خلق الماعاصى ؟ قال : الله ، قلت : فمن عذب عليها ؟ قال : الله ، قلت : فلم ؟ قال : لا أدرى والله

(٢) هى عظام صاحبة ابن ملجم

(٣) عرفته بزيد كنولك سميته بزيد (اللسان)

(٤) الحزن: حزن بنى يربوع وهو قف غليظ مسيرة ثلاث ليال فى مثلها. والحزن المكان الغليظ ، وهو الخشن ، والروض فى الحزونة أحسن منه فى السهولة (اللسان الأساس) الجثجاث ريحانة طيبة الريح برية من أحرار البقل . العرار: البهار (النرجس) البرى وهو حسن الصفرة طيب الريح (الكامل)

(٥) أتيحه وهنا وموهنا : بعد ساعة من الليل (الأساس) المندل أجود العود

(٦) الزنج : بفتح الزاى وكسرها